وداعاً أيها الملك الجليل

أحمد صادق
جدة

شكلت الإستجابات الدولية والشعبية لرحيل المغفور له خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود دليلا لا يقبل الشك على التمايز الذي لا يمكن الإفلات من ملاحظته بين نوعين من القادة الذين تركوا آثارهم على التاريخ: القادة البُناة، والقادة الهدامون. وإذا كان الملك الراحل من كبار القادة البناة، فإن علينا أن نعترف بجميله وهو يعرّف دوره الإجتماعي والسياسي كي يستذكره التاريخ علامة مضيئة ناصعة في قصة المملكة العربية السعودية الشقيقة من ناحية، وفي قصة الأمة العربية في عصرها الحديث الذي تطور ونما من فعل مثل هؤلاء القادة البناة والذين كافحوا وعملوا بمثابرة لبناء أوطانهم وممن سكنت الأمة ضمائرهم مذ شبوا حتى شابوا وأظن أن هاجسها سيكون ضجيعهم في مثواهم العاطر الأخير.

وإذا كان الملك الراحل قد حظي بهذا التكريم والتقدير الدولي والقومي والمحلي، فإن هذا يُرد إلى أنه كان يؤسس لنهضة بلاده بين أبناء شعبه: يلتقي الكبير والصغير ويرتشف القهوة معهم، مستذكرا ومستحضرا تاريخا طويلا لأمة لم تضع الحواجز بين الراعي والرعية وبين رب الأسرة وأبنائها. فإذا ما كان هذا التواصل بين الراحل قد أهّله لمحبة الجميع في المملكة، فإنه كذلك قد سلّحه بخبرة مستقاة من معاينة حاجات هذا الشعب الذي أراد له الراحل أن يجد موطيء قدم في جبهة العصر الحديث. هذا هو واحد من أهم أسباب ملاحظة بعض المتابعين أن الملك الراحل كان "المؤسس الثاني" للدولة العربية السعودية، ليس فقط بحسبان الأعوام التي ناهزت عدد أعوام ولاية المرحوم والده، ولكن كذلك بسبب نوعية البناء العملاق الذي شهدته هذه الأعوام بخطوات سديدة نقلت المملكة الزاهرة من عصر إلى عصر، من تراث شفاهي محفوظ في الذاكرة الجماعية العربية إلى دولة مؤسسات توازي وتبز في تقدم نظامها العديد من دول العالم العصري الحديث. هكذا نمت المدن العصرية من رمال الصحراء ومن صخور الجبال الكأداء لتحيل الحاضرة السعودية الأعمق تاريخا إلى منافس مدني وحضاري لأرقى حواضر العالم.

لقد كان جلالة الملك الراحل بان بكل معنى الكلمة، وتدل جميع المحطات التي شهدت فعله قبل الجلوس على العرش حتى مغادرته إلى ذمة الخلود على عمق ونوع فعله: فهو قد شيد المدارس وأسس الجامعات، فكان معلما من الرعيل الرائد الذي نقتدي به. كما أنه من رواد نقل المملكة من إقتصاديات البترول الإستهلاكية وحيدة الجانب إلى الإقتصاديات المتكاملة حيث أنه حرص على إستثمار فوائض واردات النفط في بناء المعامل وتأسيس الموارد الأخرى، في عملية تاريخية لمقاومة التصحر المادي والتصحر الثقافي والتربوي وإستبدالهما بالحقول الخضراء الغنّاء على الأرض وفي دواخل النفس البشرية لمواطنيه. وإن كنت أنسى، فلن أنسى تلك البقاع الخضراء الهندسية المدورة المنتشرة عبر البوادي القاحلة حيث كان الإنسان البدوي يطفو بين فضاء الرمال وفضاء السماء سابقا: مئات الحقول التي تشاهدها من نافذة الطائرة، فتستذكر كيف دبت الحياة بهذه الأرض التي كانت السباحة فيها حالة وجود أو عدم. وها نحن في بغداد نبتاع اليوم المنتجات الزراعية والصناعية السعودية التي تنافس أفضل المنتجات العالمية في جودتها بلا مبالغة. هذا، بكل دقة، هو من فعل القائد البطولي الذي يحيل الطاقات البطولية الجماعية لأبناء شعبه إلى طاقات بناء وإزدهار، بدلا من تبديدها وهدرها أو إستثمارها في قنوات الهدم والحروب.

وإذا كان الملك الراحل قد نذر نفسه لخدمة الحرمين الشريفين، فإن هذا لم يكن سوى التعبير الأدق لنذره الذات وتكريسها لبناء أرض الحرمين العتيقة العبقة برائحة التاريخ التي شهدت قصة ظهور الإسلام، كما شهدت دراما التاريخ العربي الإسلامي في أخطر مفاصله منذ أقدم العصور حتى اللحظة. كان الرجل بانيا للسلام، وهذه من سجاياه العظيمة: لذا يحسب له منجز سدل الستار على الحرب الأهلية في لبنان التي طالت عقد ونصف تحطمت خلالها البنى التحتية والإجتماعية وأزهقت معها آلاف الأرواح. لذا كان هو المنقذ الذي صنع وثيقة إتفاق الطائف ليعيد الوئام والمحبة بين أبناء الشعب اللبناني. لم يتوقف الملك فهد عند هذه النقطة، فقد كان هو من المؤمنين بالبناء بعد جروح وخراب الحروب. لذا فإنه إستثمر التعاطف والتناغم بين الشعبين السعودي واللبناني من أجل إعادة بناء لبنان ليكون "سويسرا العرب" من جديد، الأمر الذي برر توجه الإستثمارات السعودية لبناء هذا البلد كي يتجاوز جروح الحرب والهدم. وقد أخذ الملك الراحل، بسبب عشقه للبناء، دوره الطيب في إعادة بناء مدينة الفاو العراقية بعدما مُحقت من على الخارطة بسبب الحرب. وها هم أهل الفاو يستذكرون إسهاماته في قيام المدينة من الخراب إلى الإزدهار، وكأنها عنقاء تولد من جديد.

وإذا كانت الحرب التي محت الفاو من الخارطة قد حركت الهواجس وخشية الإمتداد إلى ما لا نهاية، فإن للملك فهد الفضل الكبير والرائد في بناء كتلة مجلس التعاون الخليجي الذي أقيم اصلا كإستجابة لتحدي نيران الحرب، والذي تطور ونما ليكون أساسا لوحدة خليجية مبتناة على الإتساق والتعاون والتضامن بين دول عربية هي في أمس الحاجة لهذا النوع من التكافل. لذا عمل الملك الراحل على تحويل هذا المجلس من حالة طارئة جاءت إستجابة لسبب زائل إلى بنية تعاونية عملاقة تعمل على بناء "فنون السلام" زيادة على التركيز على فنون الحرب التي كانت الحاجة إليها ماسة حسب ظروف الحقبة التي تحياها المنطقة. وهكذا إزدهرت هذه الفنون، فظهر رجل القلم بديلا عن رجل السيف كلاعب أبرز في عصر البناء والحوار الحضاري. لقد نجح الملك فهد في حسم جميع الخلافات الحدودية والنزاعات الإقليمية بين المملكة من ناحية، وبين جميع الدول المجاورة. لذا يكون هو صانع للسلام والتعاون الصحيح

عبر منطقة كان يُراد لها أن تُمزق عبر خلافات من هذا النوع.

إن الملك الراحل هو سليل ملكية عربية عريقة هي الأقدم مقارنة بسواها في المنطقة (سبعون عاما)، كما أنه كان يدرك أنه وريث هذا التراث على نحو ملحاح لأن جزيرة العرب التي تمتد عبرها المملكة العربية السعودية إنما هي موطن العرب الأصلي ومورد الإسلام النقي. لذا فإن هذا الإدراك الهاجسي قد لعب دورا تشكيليا وحاسما في صناعة التضامن العربي والتعاون الإسلامي. وإذا كان العالم الإسلامي كله قد اصابه الكثير من مكارم الملك الراحل، فإن العالم العربي يذكر له دوره الرائد في ترسيخ العمل العربي المشترك وردم فجوات الخلافات البينية ورأب الصدع. لقد عملت المملكة إبان أعوام حكمه على تطوير العمل العربي المشترك وعلى الإسهام في جميع الأنشطة السياسية والإقتصادية وسواها، الأمر الذي جعل منها الدولة العربية الرائدة والسباقة في هذا المضمار: لم تعد المملكة مجرد مصدر تمويل وإنما صارت هي التي تقدم الرؤى الرشيدة لبناء آليات القرار العربي وتوجهاته. واذا كان موقفه المبدئي من حقوق الشعب الفلسطيني في هذا الصراع المزمن متواصلا بلا تحويرات تمس المبدأ، فإن هذا الشعب يذكر له دوره في دعم نضاله من أجل الحرية وتأسيس دولة فلسطينية تضع نهاية لصراع مأساوي. لقد إحتضنت المملكة العربية السعودية ومؤسساتها الرسمية وغير الرسمية الأيادي العاملة الفلسطينية، سوية مع الأيادي العاملة من جميع أقطار الدول العربية والإسلامية. وهذا نوع من الدعم الطيب الذي خصت به المملكة على عهد الملك الراحل شقيقاتها العربية والإسلامية. بيد أن هذا لم يكن ليتحقق لو بقيت المملكة مجرد مصدر للنفط، ذلك أنها قد شهدت على عهد الملك الراحل واحدة من أكبر حركات التنمية في العالم، الأمر الذي ساعد على تدوير حركة العمل وفتح الأبواب للتشغيل وللشغيلة كي تنتج.

وإذا كانت هذه وسواها من الأسباب وراء ما تكنه شعوب العالم والشعوب الإسلامية خاصة للملك الراحل، فإننا في العراق حالة إستثنائية لأننا قد تذوقنا المعاكس السلبي لهذا الأنموذج السامي. فبينما كان الملك فهد يبني ويعمر، كانوا في بغداد يقتلون ويخربون، وبينما كان السعوديون يصنعون الحياة تحت ظله، كان القائمون علينا يصنعون أدوات الموت والدمار والعدوان. وهكذا عدنا للخلف عشرات السنين بسبب "العنتريات" التي قادتنا للإحتلال وسلمتنا للأجنبي بكل كفاءة، في الوقت الذي كان فيه أبناء جلدتنا في المملكة يتقدمون بخطوات واسعة إلى الأمام. لذا حقت علينا تحية الملك فهد وهو حي، وهو في الذاكرة، وهو يقدم أنموذج البناء معاكسا لأنموذج الهدم، ومُثل المحبة معاكسا لعواطف الكراهية، والأبوية معاكسا للتشرذم. ولنا في خليفته خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز كل الأمل والرجاء في أن تبقى المملكة الزاهرة محط أنظار العالم والإنسانية وهي تتقدم بإضطراد نحو آفاق المستقبل الواعد. ■